صوم غاندى السياسى

الأستاذ عبد العزيز محمد الزكى

الصوم تعليم دينى فرضته جميع الشرائع السماوية ، وسنته مختلف الأديان الأخرى . وجعلت من أدائه طاعة لله وتقرباً منه ، ومن مخالفته خروجاً على أوامره . ويعتبر الدين الهندوكى من بين تلك الأديان التى تشرع الصوم فى أوقات محدودة ، وتلزم الهندوكيين بقضائها ترافا لله . ولكن الشعب الهندوكى العريق فى الروحية لم يكتف بصيام الأيام التى يفرضها الدين ، ويقدم طواعية قربان صومه لله كلما نزلت به محنة ، أو أشفقه مصيبة ، أو كلما ارتكب آثاماً يود التكفير عنها . وكانت أم غاندى من أولاء الهندوكيات الورعات المتقشفات التى لا تهمل صيامها الدينى ، فضلا عن أنها كانت تنذر فى مناسبات مختلفة أن لا تأكل إلا إذا رأت الشمس . ويحدث أن تمضى الأيام تباعاً دون أن تأكل شيئاً لأنها لم تستطع رؤية الشمس خلف سحب الهند الكثيفة . فتعوّد غاندى منذ صغره أن يرى أمه تصوم صوماً طويلا شاقاً ، ترك فى مخيلته أثراً مطبوعاً ظهر مفعوله فى حياته العامة .

فابتدأت نزعة غاندى الروحية تنربى فى أحضان تلك الأم التقية الصالحة التى تتمسك بفروض دينها . ثم أخذت تنمو حينما تلقن أول مبادئ الديانة الهندوكية ، ولمس من مواطنيه تعلقهم بها ، ووجدهم شعباً يؤمن بدين يحرم أكل اللحوم ، وينبذ لذيذ الطعام ، ويعيش على النبات ، ويشتهر بالزهد والتقشف . فشب غاندى نباتياً لا تثيره شهوة الأكل ، ولا يغريه فاخر المأكولات ، ويحترم تقاليد دينه . فغرست حياته الأولى مع أمه ، ثم نشأته فى ربوع شعب دينى ، المبادئ الروحية فى نفسه . وأصبح فكره ينزع دائماً إلى الناحية الدينية والروحية ، ويغلب الحقائق الدينية على أى حقيقة تخالفها . وظهر كل ذلك واضحاً حينما خاض معترك الحياة الاجتماعية ، فكان يحاول أن يحل كل ما يقابله من مشاكل بالطرق الدينية . وكان الصوم أول هذه الطرق كان غاندى فى أول الأمر يصوم صيامه الدينى ، أو يزيد عليه أياما معدودة ، كلما طرأت مناسبة شخصية تدفعه لذلك . ولكن حينما أخذ نفوذه يقوى فى جنوب أفريقية ، وأصبح له أتباع مسئول عن سلوكهم وتصرفاتهم ؛ حتى إذا ما صدر عنهم أى فعل يخالف تعاليم الدين ، أو يتعارض مع أصول الأخلاق ، أو يغاير ما ينادى به من مبادئ سياسية ، حق عليه أن يحزن لحدوثه ويتألم ، ويشعر أنه مسئول عما أتوه من آثام ، وينذر صوم عدة أيام أو بضعة أسابيع ليكشف عذاب الصوم ما يحسه من وخز الضمير وكآبة الروح ، أو يخفف ضغط الشعور الأليم بالمسئولية من ناحية ، وليكفر عن آثام أتباعه من ناحية أخرى . فكان صومه يؤثر فى نفوس أتباعه فيتألمون لألمه ، إلا أنهم فى الوقت ذاته كانوا يجلون مقاساته آلام صوم متواصل من أجلهم بدون أن يقترف ذنباً يستحق أن يطلب عنه الغفران . ولذلك حرصوا على ألا يقترفوا من المخالفات والأوزار ما يؤلم غاندى ، فيضطر إلى أن يلجأ إلى صوم يسبب له مايكرهون من العناء والتعب

فلما وجد غاندى ما لصومه من أثر عميق فى نفوس الهنود ، أدرك بفطرته النفاذة ، وفهمه السليم لروح شعبه أنه يمكن أن يتخذ من الصوم ذريعة روحية مفيدة ، يخدم بها أغراضه الإصلاحية من تقويم أخلاق قومه ، وإصلاح حياتهم المادية والاجتماعية ، وترقية مستواهم السياسى ؛ كما أدرك أن قوة مفعول الصوم فى نفوس الهنود سببه أنهم قوم لا يرهبون إلا قوة الروح ، ولا يخضعون إلا لسلطان الدين ، فتعمد مخاطبتهم باللغة التى يجيدون معرفتها ويصدعون إليها . فاستعان بالصوم لخدمة مصالحهم ، لأنه يعبر عن قوة دينية ، وعن مظهر من مظاهر القدرة على تحمل الآلام ومقاساة الجوع ، فضلا عن أنه وسيلة من وسائل تطهير الروح . فسهل عليه السيطرة به على قومه ، ونجح فى استخدامه إلى أبعد حد بحيث أصبح الصوم أمضى سلاح سياسى يعتمد عليه غاندى بصفته الشخصية للقضاء على الاضطرابات والقلاقل التى كثيراً ما تحدث فى الهند ، ولتهدئة ثورات النفوس الهائجة حتى يشملها الحب والوئام ، أو لتفادى ما تتعرض له من أزمات سياسية ، وما يهددها من كوارث اجتماعية . ويرجع توفيق غاندى فى استخدام هذا السلاح الدينى فى السياسة إلى أسباب أهمها :

فهم غاندى العميق لمزاج شعبه الروحى ، ومعاملته بالأسلوب الوحيد الذى يصدع له دائماً .

ثم دقة حساسية غاندى وصدقها فى تلمس خطايا الشعب الحقيقية ، وقدرته الروحية ونفاذ بصيرته التى تخترق شغاف قلوب الجماهير ، وتشعرهم بأن خطاياهم قد مست أعماق نفسه ، فسببت له آلاماً مؤذية من الحزن والألم ، فرضى أن يحتمل عناء الصيام ليعفو الله عنهم . وذلك يوجد الفزع فى قلوب الشعب الذى يخاف على حياة الزعيم الذى يحبونه كل الحب فيضطرون للاستماع لنصائحه والأخذ بآرائه السياسية والاجتماعية ، حتى لا يعود إلى صوم قد يكلف غاندى حياته ، وتفقد الهند بطلها المقدس .

ولقد صام غاندى حوالى خمسة عشر صوماً خلال الخمس والثلاثين سنة الأخيرة من عمره أذكر منها على سبيل المثال ثلاث مناسبات صام فيها غاندى ، لأوضح بعض الظروف المختلفة التى كان يصوم من أجلها غاندى . ولنبدأ بصوم سببه أخلاق تذره عند ما كان فى جنوب أفريقية يشرف على التعليم فى المدرسة التى أنشأها بمزرعة العنقاء ، وتسمح باختلاط الصبيان والبنات بالرغم من تباين نشأتهم واختلاف أوساطهم . فحدث أن اعتدى أحد التلاميذ على هفاف فتاة ، فلما سمع غاندى بهذا النبأ الأثيم تألم وشعر أنه كمشرف على هذه المدرسة مسئول عما ارتكب ، فعاقب نفسه بصوم تسعة أيام ليخفف بها وطأة وخز الضمير وتأنيبه من جهة ، وليطلب المغفرة من الله لهذين الآثمين من جهة أخرى . فكان لصيامه وقع أليم فى أهل المزرعة طهر ما علق بالنفوس من أفكار سوداء ، كما حرر نفس غاندى من كل ما انتابها من قلق واضطراب ، وأحل محل غضبه على المجرمين إحساساً بالعطف والشفقة عليهما ، فتوثقت الملاقة بينه وبين الأولاد والبنات .

أما عن الصوم الثانى فصامه غاندى بعد أن نزح عن جنوب أفريقية ورجع إلى الهند بصيته المعروف بمحاربة الاســـتعمار البريطانى ؛ فاستطاع بعد أن درس حال الهند من جميع النواحى أن يتولى زعامة الشعب الهندى . ثم أخذ يطالب باستقلال الهند الذاتى الذى وعدت انجلترا أن تمنحه للهند بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، نظير ما قدمته لها من مساعدات حربية . فلم تكتف الحكومة الإنجليزية بمراوغته ، بل أخذت تشدد الرقابة على الهنود ، كما فرضت عليهم أحكاما عسكرية صارمة . فعزم غاندى على أن يحاربها حرباً سلمية ، أى يحاربها بسلاح العصيان المدنى الذى حاربها به من قبل فى جنوب أفريقية ، واستطاع أن يلغى ضريبة الثلاثة جنيهات المفروضة على الهنود هناك . إلا أنه شعر بصعوبة قيام شعب يقرب من أربعمائة مليون نسمة ، يختلف فيما بينه من حيث الدين والعادات واللغة ، بعصيان إجماعى قبل أن تتشبع روح كل فرد بأساليب العصيان المدنى السلمى . وهذا يتطلب تنظيما دقيقاً لحركة العصيان ، حتى تبتعد عن العنف والشغب والفوضى وحوادث السرقة والتحطيم والحرق . فأخذ غاندى يمرن الشعب بادىء الأمر على العصيان ، بأن طالبهم بمقاطعة كل ما هو إنجليزى . فقاطع الشعب التوظف فى المحاكم الحكومية الظالمة ، والتعلم فى المدارس والجامعات الإنجليزية التى تفسد عقلية الهنود ، وشراء السلع البريطانية . كما طالبهم بمخالفة كل قانون جائر يضر بمصالحهم . وبعد أن تغلغلت مبادىء المقاومة السلبية فى النفوس ، وبعد أن بلغت حماسة الهنود من القوة بحيث لا يستطاع إخمادها ، أعلن غاندى العصيان المدنى العام فى جميع أنحاء البلاد ، وكان يظن أنه ان يحدث شيئاً يعكر صفو سلمية هذا العصيان ، ولكن حدث أشد ما يبغضه إذ اصطدم الأهالى برجال الشرطة ، فهاج الشعب ، وأطلق الرصاص ، وأشعلت النيران ، واريقت الدماء ، فانتشرت الفوضى ، وكثرت حوادث النهب والإتلاف . فأرغم غاندى على أن يوقف هذا العصيان ويعلنه ثلاث مرات متتالية ، وعلى أن يصوم أربعاً وعشرين ساعة من كل أسبوع تكفيراً عن الدم الذى أريق ، وقصاصاً لنفسه على فظائع بنى قومه ، حتى يشعرهم بهمجية عنفهم ، ويلزمهم حد اللاعنف الذى يجب عن طريقه أن تنال الهند استقلالها .

وكان الصوم الثالث سببه ما بين الهندوكيين والمنبوذين من نزاع ، لأن مشكلة المنبوذين من أولى المشاكل الاجتماعية الهندية التى وجه لها غاندى كثيراً من عنايته . وذلك لما وجد الهندوكيين يحتقرون المنبوذين أشد الاحتقار ، ويعتبرونهم أنجاساً ، ويحرمون معاشرتهم أو الاتصال بهم . فحاول غاندى أن يمحو الفوارق الاجتماعية بين جميع الطوائف الهندية ، ويعطى المنبوذين من الحقوق السياسية مثل ما لأى هندى آخر . فكان يظهر فى كل